حول الفكر العربي :

الغرض من دراسة الفكر العربي

للأستاذ عبد العزيز محمد الزكي

— ٢ —

إن كانت نهضتنا الثقافية تحتاج إلى تقوية شخصيتنا العربية ، عن طريق تجسيم المبادئ الإسلامية في ظروف الحياة العصرية ، فإنها تحتاج كذلك إلى أن يضع العرب أيديهم على مواضع عبقريتهم التي لمستها الحضارة الغربية ، وعدت معالمها الأصلية التي لن تتضح إلا إذا لجأ العرب إلى دراسة تراثهم الفكري الذي يعتبر الوثيقة الصادقة الوحيدة التي يختبئ في ثناياها سمات النبوغ العربي ، وقدراته الفذة ، والذي يسوق البحث فيه إلى معرفة اتجاهات هذا الفكر التي إذا أتيح لها فرص القيام بالأعمال التي تلائمها ، وتتمشى مع نوازعها ، مهرت في أداء كل ما تكلف به ، وأظهرت براعة في كل ما يطلبه منها من واجبات سواء أكانت قومية أم دولية . وذلك يجب على كل من يشتغل بالفكر العربي من العرب أن يراعي هذه الحقيقة ، ويضعها نصب عينيه ، ولا يقف عند حد تحليل العلوم العربية وفنونها ، وإنما يجب أن يتعدى مثل هذه الأبحاث ، ويرمي إلى إبراز مؤهلات العقلية العربية وكفاياتها ، ويهدف إلى رسم الطرق التي تصمم أسس ثقافات جديدة تتفق مع روح المدنية الحديثة ، وتحقق للعرب مآربهم في الحياة ، ولا ينبغي لأحد من العرب أن يحاكي المستشرقين في دراساتهم للفكر العربي .

لا شك أن المستشرقين هم رواد الباحثين في الفكر العربي ، وإن كنا نقدر هذا السبق إلا أنهم لم يوجهوا البحث فيه وجهته الصحيحة ، وذلك لأنهم ما أقبلوا على دراسته في أول الأمر إلا بتأثير نوعين من البواعث : أولها حب الاستطلاع ومعرفة مدى ما وصلت إليه الثقافة العربية من رقي ، في وقت كان الغرب يعيش على الفطرة ، فبعثت دراساتها في نفوس الغربيين الحسد والغيرة من تلك الثقافة التي اعتمدوا عليها في غذائهم الروحي

ردٍّ بالكسر ، وأن عاصما قرأ « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » بكسر الراء . ويروى أبو حيان أن هذا الكسر لغة بني ضبة ، وهم بنو همومة تميم حيث يقول : « قرأ علقمة ويحيى بن وثاب والأعمش » وجدوا بضاعتهم ردت إليهم « بكسر الراء وهو لغة بني ضبة » . أما إتحاف البشر فقد نسب قراءة الكسر إلى الحسن فحسب ، واكتفى بأن قال إنها لغة ولم ينسبها إلى قبيلة . ولعل الكسر تشترك فيه القبيلتان .

١٤ — نِعِمَّ إذا اقترنت بها « ما » تنطقها هذيل بكسرتين في أولها . أما غيرهم فبإسكان العين أو اختلاس الحركة وقرئ بذلك جميعاً . وهذا وما ينسب إليهم أنهم يقولون البِرء بكسر الباء يقوى اشتراكهم مع ضبة .

١٥ — من ألفاظهم : السرحان والسِّيد بكسر السين معناها الأسد . الجمة : النار . انتعص الرجل : وتر فلم يطلب ثأره . الجسوس والجسوس : النخل . التكريم : التكثير . الحساب : الجمع الكثير من الناس . المنج : الرجل . الشبج : الباب العالي البناء . رجل عوّق : جبان . الهكع : السمال . لدّه عن الأمر : حبسه . القفعاني : الجزار . السنائح : الطرق في الجبال واحدتها سنيمة . الخلوج من السحاب : المتفرق . المصوب : الجائع الذي كادت أمعاؤه تيبس جوعاً . البر : جماعة القوم . ويقولون : البوع وغيرهم الباع . ويقولون : السميج وغيرهم السمج . ويقولون صلوته : أصبت صلاة أي ظهره وغيرهم : صليته . وهم وبنو ضمرة يقولون اليازع وغيرهم الوازع . وهم ومن والاهم من أزد السراة يقولون الخزومة ومعناها البقرة . وهم يقولون في نجد : الساكن الوسط نجد بضمتين . ويقولون : استرابه . وغيرهم : رابه . ويشاركون الحجازيين في أنهم لا يثبرون . ويشاركون النجديين في أنهم يقولون الحج بكسر الحاء . وتقول هذيل الضحضاح بمعنى الكثير . واعتقت الأرض : أخصبت . والليث معناه اللسن البليغ .

عبد الستار أحمد فراج
مدرس بالمعهد الديني

فترة طويلة من الزمن ، وأثارت الحقد على حضارة فشلت حملاتهم الصليبية في القضاء عليها ، فحاول المستشرقون الحط من قيمة هذه الثقافة بالتشكيك في استعدادات العرب العقلية . والباعث الآخر لا يخرج عن دوافع استعمارية سعت عن طريق الثقافة ، كما سعت عن طريق غيرها من الوسائل : تحطيم روح أمة لم تتهاون في مقاومة المستعمرين ؛ وقصدت إخضاع العالم العربي بإضعاف الثقة في مقوماته العقلية وإشعاره بحاجته إلى غيره من الأمم الناهضة ، فيضطر إلى أن يخضع ويقبل سيطرة الغرب ، ويذعن لسيادته . فلا عجب إذاً من تحامل المستشرقين على العرب ، ولا غرابة إذا زعموا أن العقلية العربية عقلية سامية قاصرة عن الخلق ، عاجزة عن استنتاج المعاني المجردة ، غير قادرة على تجاوز الجزئيات المحسوسة ، أو إذا ادعوا أن العرب استمدوا علومهم وفلسفتهم من قدماء اليونانيين الغربيين ، ولا فضل لهم فيما عرفوه من فنون وآداب ومدنية ، فإن معظمها مأخوذ من الفرس والهنود .

ولكن لما أخذت النزعة الاستعمارية تخف باستمرار مقاومة العرب لقوى الاستعمار ، ومناهضة الآراء الاستعمارية ، ومحاولتهم الشائعة لرفع مستواهم المعنوي والمادي ، وإظهار قوة مواهبهم ، وقدرتهم على مجاراة المدنية الحديثة ، والمساهمة فيها ، اختفت تلك الآراء المتطرفة في العقلية العربية ، وبدأ المستشرقون ينظرون إلى البحث في الثقافة العربية على أنه ضرب من الهواية العلمية ، ينصبون فيها يفهم فكر ليس من نتاج عقول شعوبهم ، أو يظهرون قسطاً من البراعة في كشف النقاب عن أسرار إحدى الثقافات القديمة ، أي لا يبغون غير متعة روحية أو نزهة علمية ، ولا يبتغون الكشف عن خواص العقلية العربية ومميزاتها ، ولا يهدفون من وراء ذلك إلى إحياء تراث العرب وبعثه في صورة تناسب روح الحياة الحديثة ، وتدفع بالشعوب العربية إلى الأمام .

وهذا ما يجب أن يطالبه كل من يبحث من العرب في آثار ثقافته ، ولا يكتفي بدحض مزاعم المستشرقين وإدعاءاتهم ، أو يرضى باقتفاء أثرهم في مناهج أبحاثهم العلمية الدقيقة التي تتوخى تحليل الواقع تحليلا موضوعياً بدون أن تهتم بالاستفادة منه في ترقية مستوى العرب الثقافي ، أي لا تصل هذه الدراسات ماضي العرب بحاضرهم ، أو تربط حياتهم في عهد الأمويين والعباسيين بحياتهم في العصور الحديثة ، ولا تنظر إلى التراث العربي على أنه أحد التجارب الثقافية التي مرت بالشعوب العربية ، وأنه يجب أن توجد علاقة وثيقة بين مختلف المراحل الثقافية العربية تبدو في تطورها الدائم ، وتدفقها المتواصل نحو الرقي والتقدم ، وأن الحضارات المعاصرة يجب أن تهتدي بالحضارات القديمة ، وتتفادى ما وقعت فيه من أخطاء عاقت سيرها الطبيعي . فلو هدف العرب من دراسة فكرهم القديم للكشف عن مقوماتهم العقلية الأصيلة لهيئت لهم السبل لتقوية ما يكتنفها من ضعف ونقص ، وإبراز ما تشتمل عليه من نبوغ ومهارة في مختلف نواحي النشاط الإنساني ، ولتجنبوا كل ما اقترفته سابقاً من أغلاط ، وتمثلوا بكل ما أظهرته من براعة .

إن محاولات كثير من الكتاب لإثبات قدرة الفكر العربي على الابتكار والخلق يستهلك جهوداً عظيمة ، تصرفهم عن البحث الحق في التراث العربي ؛ وتشغلهم بكتابات يزعمونها لا تقدم ولا تؤخر . فبدلا من أن نتطاحن في سبيل التدليل على قدرة العرب على تأليف العلوم ، ووضع المذاهب ، وتكوين النظريات ، يجب أن نبحث عن الأسباب التي دعت العرب إلى الأخذ من غيرهم ، وننعم النظر في الظروف التي نشأت فيها الحضارة العربية ، وتطورت . فإن انتقال العرب الفاجيء من بلاد بدوية إلى بلاد ذات مدنية عريقة وبعد تفاني ، أصابهم بنوع من الذهول ، شل تفكيرهم ، وأفقدهم القدرة على التأمل الحر . ولما حاول العرب أن يندمجوا في الحياة الجديدة أخذ يحاكي الشعوب الخاضعة لهو هي تفوقه حضارة ومدنية ، ويردد علومها وفلسفاتها ، حتى أصبح كأنه صاحب هذه الحضارات . ولكنه ما كاد يلم بمختلف الثقافات حتى تضاربت في ذهنه ، وتشابكت الاتجاهات الشرقية والغربية ، فأدى ذلك إلى أزمة روحية ظهرت جلية واضحة في ثورة الشك التي طرأت على نفس الغزالي ، فعبرت بقوة وصدق عن مدى اضطراب الحياة الروحية في العالم العربي نتيجة لتصادم المذاهب اليونانية بالأفكار الفارسية والهندية في العقلية العربية المشبعة بتعاليم الدين الإسلامي ، فكانت العرب حيرة فكرية بلبلت أذهانهم وشقتها .

فالبيئة الثقافية التي نشأ فيها الفكر العربي هي التي لم تسمح

له بأن يتدرج في مراحل النضوج ، مرحلة بعد مرحلة ، وإنما سافته دفعة واحدة من حالة بدوية إلى حالة راقية ، لم تمهله لينمو نمواً طبيعياً ، وعجلت بنضوجه قبل الأوان فلم تتح له فرص الترقي، أو التمرن على التفكير الذاتي المستقل ، لأنها زودته بثقافات تامة التكوين ، يهرته ، فتعلق بها تعلقاً شديداً لجدتها عليه ، فوقع في أسرها ، ولم يستطع أن يتخلص منها ، ويتمداها ، لأن ذلك يحتاج إلى فكر تعود التأمل العميق ، ومارس الحياة الثقافية مدة طويلة . وليت تأثير هذه البيئة الثقافية المعقدة في الفكر العربي وقف عند هذا الحد ، بل كما عجلت بنضوجه عجلت بإطفاء جذوته بعد أن أجهدته ، فدرجة أنه بذل كل طاقاته في استيعاب شتى الثقافات الشرقية والغربية ، فأصابه ضرب من الجمود والركود نتيجة لهذا الإجهاد المتصل أفقده من أن ينتج إنتاجاً عربياً خالصاً يتميز به ، فأوحى ذلك للمستشرقين بأن العقلية العربية عاجزة عن الإبداع العلمي ، ولم ينصفوا العرب ويعلنوا أن هذا العجز خارج عن إرادة عقليتهم ولا يرجع إلى أي نقص فيها ، وإنما يعود إلى اضطراب الظروف الثقافية التي نشأت فيها هذه العقلية .

بالرغم من كل هذا بزغ بين العرب أفراد قلائل استطاعت عبقريتهم أن تتغلب على هذه الظروف المضطربة ، وتتجاوز ما هو مألوف بينهم من علوم وفنون ، وأبرزت قدرة العقلية العربية في المجال العلمي ، وابتكرت علوماً جديدة لم ينتبه إليها عامة علماء العرب . ولم يساهم واحد منهم في ترقيتها . ومن بين هؤلاء المفكرين الأفذاذ عبد القاهر الجرجاني الذي نجح في وضع نظرية جديدة في الأدب لم يمهدها العرب من قبله ، وهي تعتمد على إنعام الفروق في النصوص الأدبية وكشف أوجه البلاغة فيها ؛ إلا أن هذا المذهب سريعاً ما ابتلعته النظريات الشائعة التي تستند على المنطق الأرسطي ، ولم يجد له من الأنصار الأكفاء من يرعاه من بعده حتى يستكمل تكوينه . وذلك لإيمان العرب الساذج بسحر المنطق وضرورة تطبيقه على كافة العلوم ليأخذ الصبغة العلمية في ذلك الوقت . وكذلك الحال بالنسبة لابن خلدون الذي وفق في تأليف أصول علم جديد أطلق عليه « علم العمران » ويعرف الآن باسم « علم الاجتماع » ابتكرته قريحته التي شغفت بالتاريخ وولعت بملاحظة أحوال مختلف البلدان التي رحل إليها وتجول في ربوعها ، وما اكتسبت ملكات التفكير المنظم من دراسة الفلسفة بفروعها فساعدته هذه الدراسات وغيرها من العلوم والفنون على استخلاص هذا العلم الذي افتقر من بعده لمن يتعهده ، حتى نسي ونسب وضعه إلى أوجست كونت الفرنسي الذي ظهر بعده بقرون

فأحسب أنه يبدو أن اضطراب البيئة الثقافية ، وتعقدها هو أصل داء الفكر العربي وعلة أخذه من ثقافات الغير بدون أن يضيف إليها شيئاً كثيراً . ولذلك يجب أن نتعظ بما أصاب عقلية أسلافنا من عقم ، ونجنب فكرنا الحياة في أي جو ثقافي خانق يعرق انطلاقه في عالم الخلق ، ويعرضه لنفس الاتهام السابق ، فتأكد مزاعم المستشرقين في العقلية العربية . وأول خطوة يجب أن نخطوها في هذا السبيل هو أن نهيء لأنفسنا بيئة علمية تحث عقولنا على أن تسلك سبلها الطبيعية ، ولا تنخدع ببريق الثقافات الغربية الحديثة ، أو تغتر بما وصل إليه الغرب من مدنية ، وتقبل عليها إقبالا أعمى ، وتظن أن حشو أذهاننا بكافة العلوم والفنون الغربية يعد دليلا على التمدن الصادق ، ويتخذه مقياساً للتثقيف الكامل ، وتتغافل عن أن الثقافات الغربية بما بلغته من رقعة وعمق ، لا تستطيع أن تضع العقلية العربية التي تختلف مقوماتها الروحية عن مقومات العقلية الغربية المادية. فلا ينبغي بأي حال أن يقتصر أحد من العرب على التزود بعلوم الغربيين وفنونهم ، بل يجب عليه أن يعتمد اعتماداً رئيسياً في التثقيف على نتاج عقول أمته ، فينهل من معين الثقافات العربية ، وما يشابهها من الثقافات الشرقية ؛ لأن فكره في كنفها يشعر بالطمأنينة وحرية وانسياب فيستجيب لها ، ويبدع في شتى نواحي النشاط الفكري ، ولا يحس بضغط أية ثقافة غريبة عن مزاجه تلزمه أن يطرق طريقها قسراً ، أو تجبره على أن يتشكل باتجاهاتها بالرغم منه ، فتعرقل تقدمه ، وتعدم ابتكاره .

وهذا لا يعني أن العربي لا يجب أن يهتدي بتجارب الغرب الثقافية في تنمية علومه وفنونه ، فإن له جهاداً فكرياً عظيم الشأن لا يمكن لأمة تريد أن تنهض علمياً أن تستغني عنه ، أو لا تنتفع بما كسبه هذا الفكر للانسانية من خيرات ، كان لها

أكبر الأثر فيما نحن فيه من حضارة . إلا أنه لا يجوز أن نترك لهذا الفكر أن يسيطر على عقولنا ، أو يتحكم فى أهوائنا ، حتى لا نقع فيما وقع فيه الغزالى من قلق نفسى واضطراب عقلى ، ونعانى شعوراً مؤلماً بالنقص فى قدرتنا العقلية من جراء تضارب نزعاتنا الشرقية بالنزعات الغربية ، الذى قد يحول دون تقدمنا العلمى ، ويجعلنا نحس بحاجتنا الدائمة إلى عون الغرب . فإعداد الجو الثقافى الملائم لطبيعة العقلية العربيه يعتبر الدعامة الأساسية التى ترتكز عليها النوازع الفكرية تربية حرة تساعد على تشييد حضارة جديدة تنافس الحضارة الغربية .

تلك الحضارة التى لم تعرف طريق المجد إلا بعد أن حطمت قيود الكنيسة التى فرضتها على الفكر ، وتخلصت من استبداد رجال الدين الذين حبسوا العقلية الغربية داخل نطاق التعاليم المسيحية الروحية التى تخالف اتجاهات الغرب التى تميل للمادية ، فكانت حركة النهضة الأوربية التى استضاءت بكفايات الفكر الغربى القديم ، الذى يتمثل فى الفكر اليونانى ، فقامت النهضة الحديثة على أساس بعث ثقافة اليونان ، واستقلال مقوماتها فى خلق حضارة جديدة . وفى هذا الجو الثقافى نجح الفكر الغربى فى أن ينفض من نفسه ذلك الخمول الذى نشره طغيان الأفكار المسيحية على الروح الغربية ، ووفق فى وضع علوم مبتكرة ، واختراع صناعات متنوعة وآلات كثيرة .

فلم لا يحاكى العربى الغربيين فى هذا العمل ، ويكف عن تقليدهم فى عاداتهم وأخلاقهم ، ويكتفى بما أخذه منهم من ثقافات ويكشف عن مزايا العقلية العربية عن طريق دراسة مخلفات الأفذاذ من العرب أمثال عبد القاهر الجرجانى وابن خلدون وغيرهما دراسة تحليلية ، يحاول أن يستشف منها ميول الفكر العربى الأساسية ، ثم يسعى فى أن يبث هذه الميول فى عقول صغارنا ، حتى يأتى ذلك اليوم الذى نرى أثرها ظاهراً فى كل ناحية من نواحى الحياة العربية .

* * *

نخلص من هذه المقالة والتى قبلها إلى أن تحقيق نهضتنا الحديثة بموزه تعاون رجال الدين ورجال الفكر فى جميع البلدان العربية على خلق وسط حضارى تتبسط فيه العقلية العربية ، وتنساب حسب سجيتها ، لا يعوقها أى مؤثر خارجى ولا يفسدها أى عيب داخلى . ولذلك يجب أن يساهم كل من هاتين الفئتين من الرجال فى تنقية الأخلاق العربية ، وتوجيهها أثناء هذه التنقية توجيهاً اجتماعياً صالحاً يتفق مع التعاليم الإسلامية ، ويعود على الوطن العربى بالخير ، ويكسب العرب شخصية قوية ذات لون خاص يميزها عن غيرها من الشعوب . ويمكن أن يستغلوها فى مواجهة المشاكل القومية أو الدولية كما يجب أن يشتركا فى التنقيب عن خواص العقلية العربية ، حتى يمكن لرجال التربية من وضع الطرق التربوية الصحيحة التى تتسق مع العقلية العربية وتنميها إلى أقصى حد يمكن أن تبلغه من الكمال ، ثم استغلالها فى خلق ثقافة عربية جديدة ، تتصل بالحضارات العربية السابقة وتعبر عن حياة العرب الوجدانية والعقلية فى صورة تنسجم مع روح المدنية الحديثة .

عبد العزيز محمد الزكى
مدرس الآداب بمدرسة صلاح الدين الأميرية بكفر الزيات

عالم الـــذرة
أو
الطاقة الذرية والقنبلة الذرية
تأليف الأستاذ العالم نور الدمرداش

كتاب صدر فى وقته ، يشرح لك ما لا بد أن تعرفه عن الذرة ونواتها وفلقها وطاقتها وأثرها فى مستقبل السلم ، وعن القنبلة الذرية وتجاربها وانفجارها وأثرها فى مستقبل الإنسان .

يطلب من دار الرسالة . ومن المؤلف بشارع البورصة الجديدة رقم ٢ ومن سائر المكاتب الشهيرة وثمنه ٢٠ قرشاً بخلاف أجرة البريد .